مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أفسس ٤: ٧-١٣)

يا إخوةُ لكلِّ واحدٍ منّا أُعطِيَتِ النِّعمةُ على مقدارِ موهِبَةِ المسيح* فلذلك يقولُ لمَّا صعِدَ إلى العُلى سبى سبياً وأعطى الناسَ عطايا* فكونُه صعِدَ هل هو إلاَّ أنَّه نزَلَ أولاً إلى أسافِلِ الأرض* فذاك الذي نزَلَ هو الذي صعِدَ أيضاً فوق السمواتِ كلِّها ليملأَ كلَّ شيءٍ* وهو قد أعطى أن يكون البعضُ رُسُلاً والبعضُ أنبياءَ والبعضُ مبشِّرينَ والبعضُ رعاةً ومعلِّمين* لأجلِ تكميلِ القديسينَ ولِعَمَلِ الخدمةِ وبُنيانِ جسَدِ المسيح* إلى أن ننتهي جميعُنا إلى وِحدةِ الإيمانِ ومعرِفةِ ابنِ اللهِ إلى إنسانٍ كاملٍ إلى مقدارِ قامَةِ مِلءِ المسيح.

الإنجيل

(متى ٤: ١٢-١٧)

في ذلك الزمان لمَّا سمع يسوع انَّ يوحنا قد أُسلِمَ

الظهور الإلهي

في خدمة عيد الظهور الإلهي نرتل قنداق العيد للقديس رومانوس «اليوم ظهرت للمسكونة يا رب، ونورك قد ارتسم علينا نحن الذين نسبّحك بمعرفة قائلين: لقد أتيت وظهرت أيها النور الذي لا يُدنى منه» والبيت الأول منه. (يتألّف هذا القنداق من المقدمة المذكورة أعلاه وثمانية عشر مقطعاً تُسمَّى أبيات).

وفي اليوم الثاني من العيد نقيم تذكاراً جامعاً للقديس يوحنا المعمدان، وفي خدمة القديس يوحنا نُرتل قنداقاً آخر من تأليف القديس رومانوس، حُفظ منه في كتاب الميناون (كتاب الأعياد الشهرية) المقدمة فقط: «إن الأردن قد تهيّب حضورك الجسدي فولّى مرتعداً، ويوحنا احتشم خوفاً عند إتمامه الخدمة الروحيَّة، ومراتب الملائكة دُهشوا لما شاهدوك معتمِداً بالجسد في المجاري، وجميع الذين في الظلام استناروا مسبّحين إياك أيها الظاهر والمنير الجميع». يلي هذه المقدمة ثمانية عشر بيتاً يبيِّن فيها القديس رومانوس كيف ان آدم سقط بمخالفته وصية الله وتعرّى وصار كالأعمى وكيف ان الرب يسوع أتى إليه ليُعيد إليه حلته الأولى. كما أن الأنبياء والآباء قديماً رأوا الله من خلال الظهورات والرؤى أما نحن فرأيناه وجهاً لوجه بتجسد الكلمة إلهنا الذي أعلن عنه يوحنا المعمدان انه حمل الله الرافع خطيئة العالم.

لقد سقط آدم بالخطيئة عندما خالف وصيَّة الله بأكله من الثمرة التي نهاه الله عن أكلها فتعرّى من النعمة التي كان الله قد أفاضها عليه في الخلق، وصار كالمُقعد والأعمى يلتمس مَن يقوده في لجة بحر هذا العمر ومن يُعيد إليه لباسه. فلمّا رآه الله الشفوق بطبيعته أتى إليه، صار بشراً قابلاً للموت لكي يصير آدم إلهاً فيلبسه حلَّة الجمال الأول ويفتح له عينيه غاسلاً إياهما في مياه الأردن. لقد ظهر ربنا شمساً في بيت لحم على آدم الذي عمي في عدن، ولكي يعيد فتح عدن سكن الناصرة.

عندما أتى الله إلى إبرهيم وهو جالس تحت البلوطة ظهر له كملاك، لم يعرفه إبرهيم على حقيقته لأنه لم يكن قادراً على احتمال ذلك. ويعقوب عندما رأى الله على رأس السلّم كان ذلك في الحلم وليس في الواقع، ومن صارعه في الليل كان في مظهر إنسان وليس الله في طبيعته.

كما ان موسى عندما طلب أن يرى الله

العدد ٢٠٠٨/٢

الأحد ١٣ كانون الثاني

الأحد بعد الظهور الإلهي

تذكار القديسين أرملُس واستراتونيكُس الشهيدين

اللحن الثامن

انصرفَ إلى الجليل* وترك الناصرةَ وجاء فسكنَ في كَفْرناحوم التي على شاطئ البحر في تخوم زبولونَ ونفتاليمَ* ليتمَّ ما قيلَ بإشعياءَ النبي القائل: أرضُ زبولون وأرضُ نفتاليم طريقُ البحر عَبْرَ الأردن جليل الأمم* الشعب الجالسُ في الظلمة أبصر نوراً عظيماً والجالسون في بُقعَةِ الموتِ وظلاله أشرق عليهم نورٌ* ومنذئذٍ ابتدأ يسوعُ يكرِزُ ويقول: توبوا، فقدِ اقتربَ ملكوتُ السموات.

تأمل

«يا إخوةُ لكلٍّ واحدٍ منَّا أُعطيتِ النعمةُ على مقدارِ موهِبَةِ المسيح» (أف ٤:٧).

إنّ ختم موهبة الروح القدس يفعل فعله عند كل الممسوحين ولكن الشعور بهذه المواهب لا يكون واحداً عند الجميع ولا يعملون على توزيع هذا الكنز بالسرعة التي يستحقها وذلك لأنهم لم يصلوا إلى سن الإدراك، أو لأنهم يفتقرون إلى الاستعداد والقابلية وقت قبول المعمودية، ومع ذلك برهن البعض بدموع ندامتهم وحياتهم على انهم قبلوا النِعَم الممنوحة لهم

لم يُظهر له اللهُ ذاته إنما أراه قفاه أي مجده. وكان موسى ينظر من ثغرة صغيرة، أي إنه لم يرَ إلاّ جزءاً بسيطاً مما أراد أن يراه. واشعياء قال إنه رأى الله جالساً على العرش، ولكنه رآه بالروح كنبي وليس بعينيه الجسديتين. ودانيال رآه بمظهر ابن الإنسان وبمظهر القديم الأيام، وحزقيال رآه في هيئة إنسان جالس على مركبة نارية.

أما اليوم فقد أشرق نور لا ينطفئ على مَن هم في الظلمة والظلال فليس من ليل بعد، بل نهار دائم لأن كلمة الله تجسَّد وظهر لنا منيراً الجميع. إبرهيم لم يعرفه إلهاً أما نحن فقد رأيناه ولمسته أيدينا لأنه هو شاء ذلك. يعقوب رآه في الحلم أما اليوم فقد أتى إلينا وجهاً لوجه، فليس من خيال بعد ولا من أحلام، لأننا نرى الكلمة بالجسد في وضح النهار. موسى رآه جزئياً أما نحن فرأيناه كلياً. اشعياء رآه بعينَيْ الروح أما نحن فقد رأيناه بعيون أجسادنا ربَّ الصباؤوت ورفعنا إليه التسبيح الملائكي «قدوس، قدوس هو المتجسد، قدوس هو الله». وقد دُعي دانيال «رجل الرغائب» لأنه رغب أن يرى ما نحن ناظرون.

بتجسّد الكلمة وظهوره لنا تمزقت حلّة الحداد ولبسنا اللباس الأبيض الذي خاطه لنا الروح من صوف الحمل إلهنا الذي يمحو خطايانا ويمنحنا عدم الفساد، كما أعلن لنا يوحنا المعمدان.

«سوف أراك أنا أيضاً يا يسوع منيراً ذهني ومخاطباً أفكاري هكذا: «أنتم العطاش أبداً تعالوا إليّ واستقوا». إرْوِ قلبي المتواضع الذي جرحه المضلّ وتركه جائعاً وعطشاناً، ليس للأكل ولا للشرب بل لسماع كلمات الروح، والذي لا يجد معلّمه وليس قادراً على التعلّم (بعيداً عنك) وهو يتنهد الآن منتظراً قضاءك أيها الظاهر والمنير الجميع».

أين الأخلاق

صباح الثلاثاء ١ كانون الثاني ترأس سيادة راعي الأبرشية خدمة القداس الإلهي في كاتدرائية القديس جاورجيوس وبعد قراءة الإنجيل المقدس ألقى العظة التالية:

«اليوم نعيِّد للقديس باسيليوس الكبير ولرأس السنة، إنما أولاً لذكرى ختانة الرب يسوع المسيح بالجسد. الرب يسوع الذي تجسَّد من أجل خلاص البشر لم ينقض الشريعة بل خضع لها وخُتِنَ كما كانت العادةُ في أيامه. لكنه علَّمنا والرسل فيما بعد أنّ الختانة الحقيقيةَ هي خِتانةُ القلب من كلِّ شائبة، وختانةُ اللسان من كل ما يُسيء إلى الإنسان. أين نحن من تعاليم ربنا؟

ما يحز في النفس هذه الأيام ان الأخلاق ضاعت على كل المستويات. صرنا نفتقد الأخلاق في السياسة وقد أصبح التشاتُم القاعدةَ، واللغةُ الممجوجة وسيلةَ التخاطب. تدنّى المستوى إلى حدود مخجلة، ولم ينجُ حتى رجال الدين من الاتهمات والشتائم والتجريح.

نفتقد الأخلاق أيضاً عند المواطنين الذين يعتبرون تخطي القوانين شطارة والتحايل على الأنظمة ذكاء. مَن منكم لم يشاهد سيارة أنيقة تتطاير منها أعقاب السجائر أو قشور اللوز أو ما شابه. ومَن لم تحترق أعصابه في سيارته بين أرتال السيارات المتكدسة في الشوارع لا لشيء إلاّ لأن كل إنسان يحاول قيادة سيارته بحسب قوانينه هو لا قوانين السير، ضارباً عرض الحائط حقوق غيره ممن يقودون سياراتهم إلى جانبه، فيتخطى من حيث لا يجب، ويطلق بوق السيارة الذي يلوّث الجو ويزعج الأعصاب، ويسير بسرعة أكبر أو أقل من المفروض، ويسلك في الاتجاه الممنوع متى يحلو له ذلك، ولا يحترم إشارات السير، ويتجاهل ان قيادة السيارة يجب أن تكون بشكل مستقيم لا متعرّج وبين الخطوط المرسومة على الطريق لكي يحافظ على سلامته وسلامة غيره. أما سائقو الدراجات فحدّث عنهم ولا حرج لأنهم يشكّلون الخطر الأكبر على سلامتهم وسلامة

بالسر. وقد كتب الرسول بولس إلى تلميذه تيموثاوس يقول: «إحذر من أن تهمل النعمة التي فيك» (١ تيمو ٤:١٤)، لأن النعمة المهمَلة لا تفيد شيئاً وان الكد والسهر مفروضان على الذين يريدون لأرواحهم مغنماً روحياً من هذا السر.

إذا رأينا إنساناً فاضلاً يمتاز بالمحبة ويتميز بالنقاوة الخلقية وبعظم تواضعه وكثرة تقواه أو بأي فضيلة أخرى مطبقة تطبيقاً يثير الإعجاب فالسبب هي المسحة المقدسة التي أُعطيت له وقت إتمام السر عن استحقاق والتي شعر بمفعولها فيما بعد. وينطبق هذا القول على الذين يكشفون المستقبل والذين يشفون المرضى والمعتوهين وأمراضاً أخرى بدون الالتجاء إلى المهن وعلى الذين يقومون بأشياء عجائبية أخرى.

... لم يُعطَ شيء للمصالَحين مع الله إلاّ وكان العاطي من كان وسيطاً بين الله والبشر، ولا يمكن أن نصل إلى الوسيط (الوسيط هو الرب يسوع) بدون الأسرار للإتصال به لننال الغير. فهم يطالعونك من حيث لا تنتظرهم إذ يسلكون الطرقات بالطول والعرض والاتجاه الممنوع قبل المسموح، والمؤسف بل المحزن والمبكي ان لا أحد يحاسبهم أو يحاول ردعهم لأن بعض من يُفترض بهم السهر على أنظمة السير واحترامها مشغولون بأنفسهم وبهواتفهم والأحاديث الجانبية مع بعض الأصدقاء عوض تنظيم المرور. والمسؤولون عنهم غافلون.

ومَن يدفع الثمن؟ أليس المواطن المقهور الذي يحاول افتداء الوقت والقيام بكل ما عليه القيام به من واجبات قبل الوصول إلى عمله في الوقت المحدَّد؟ أو الوصول إلى موعده بلا تأخير؟ أو ايصال أولاده إلى المدرسة بالسلامة وتحاشي الحوادث؟؟

نفتقد الأخلاق أيضاً عند الشباب الذين يعتبرون ان كل شيء مسموح لهم باسم الحرية وأن لا قيودَ يجب أن تحكم تصرّفاتهم. ومن سوء حظ بعض الأمكنة، كشارع مونو وشارع الجميزة، وغيرهما، انها أصبحت مرتعاً لهؤلاء الشباب يمارسون فيها حريتهم بلا رادع أو رقيب، ولو على حساب كرامتهم وكرامات سكان هذه الأمكنة.

ذكرت هذين الشارعين لأنني تلقيت رسائل وشكاوى من بعض القاطنين فيهما يسألونني لفت نظر المسؤولين إلى أنّ ما يجري في هذه الأمكنة تخطى كل الحدود والأعراف والأخلاق. الحانات أصبحت بين البيوت والموسيقى الصاخبة تؤذي أسماع العائلات وأطفالهم والممارسات الشبابية تثير الاشمئزاز. وعندما يشتكي الأهالي يجيبونهم ان القانون يحمي الحريات. أية حريات هي هذه التي تُسيء إلى الجميع؟ وهل وُضعت القوانين لتخطّي الأخلاق أم للحفاظ عليها؟ أين هي الدولة التي من واجبها أن تسهر على حرية الجميع إنما دون المساس بمشاعر الآخرين وحرياتهم؟ ألا يدرك صاحب الحانة أو المطعم انه يتعدى على حرية الآخرين عندما يطلق صوت الموسيقى على مداه وحتى ساعات الفجر الأولى؟ وعندما يرمي فضلات مطعمه على قارعة الطريق لتحوم حولها الحشرات والحيوانات؟ وعندما يسمح بكل الممارسات في مطعمه متخطياً الأخلاق والأعراف من أجل الربح المادي الرخيص.

والشبان والشابات الذين يسهرون ويسكرون ويدخنون ويحلّلون كل شيء لأنفسهم، ألا يدرون انهم يسيئون إلى أنفسهم أولاً وإلى أجسادهم التي هي هياكل للروح القدس فيجعلونها آنية للرذائل؟ وهل ممارسة حريتهم تقتضي مصادرة حرية الآخرين واستباحة حقوقهم في العيش في بيوتهم وشوارعهم حياة نظيفة راقية؟

أين الأهل؟ أين العائلة التي فيها يتربى الأولاد على الإيمان وعلى الأخلاق وعلى احترام القيم والعادات، حتى إذا ما جابهتهم الصعاب أو التجارب يكونون مزوّدين بما يساعدهم على تخطّيها؟

أين الأم وأين الأب اللذان يسهران على بنيهما وبناتهما ويشكّلان لهم المثال والقدوة؟ يتابعان الأولاد في كل اهتماماتهم ونشاطاتهم وسهراتهم ويتعرّفان على رفاقهم وحسن سيرتهم، ويؤمّنان الجو الدافئ في البيت لكي يلجأ إليه الأولاد عوض الذهاب إلى الأماكن الموبوءة. وهل يقصد الأولاد الأماكن الموبوءة إن سهر أهلهم على تربيتهم التربية الصالحة؟

وأين المدرسة التي تربّي فيما تعلّم؟ المدرسة التي توعّي تلامذتها على المُثل والقيم والأخلاق وتتوسل المواد الدراسية لتنشئ الأجيال الصالحة؟ أين المدرسة والجامعة التي تخرّج إنساناً مثقفاً واعياً متعلّماً ملمّاً بكل ما ينمّي نفسه وشخصيته؟ أم ان المدرسة والجامعة صارتا مصنعاً لتخريج بشر يتقنون العلم المجرد من كل شعور نبيل

المواهب.

فالأسرار هي التي تخلق هذا التجاذب بين دمه ودمنا وتجعلنا مشاركين له بآلامه ونعمه وتجسده الإلهي. علاوة على ذلك يجب أن نعرف ان الشرطين الأساسيين اللذين يحققان مصالحتنا مع الله وسلامنا الأبدي هما اشتراكنا في الأسرار المقدسة وعمل الفضيلة. ثانياً الجهود الشخصية التي ترمي إلى الحفاظ على الخيرات الممنوحة وعدم تبديد كنوزها. ان فضيلة الأسرار وحدها تحقق لنا هذه الخيرات وهذه الكنوز. كل سر له مفعوله الخاص وكذلك إعطاء الروح القدس ومواهبه. فإعطاء الروح القدس يتم بواسطة المسحة المقدسة لذلك لا يجوز أن ننظر بعين الشك والريبة إلى مبدأ الأسرار حتى ولو كانت مفاعيل مواهبها لا تظهر أثناء القيام بالطقس، وكذلك الاستنارة الناتجة عن المعمودية. عند بعض الأشخاص الحارّي الإيمان لا تظهر إلاّ بعد زمن وذلك عندما تتنقّى أبصارهم بالتعب والعرق ومحبة المسيح لهم.

القديس نيقولا كاباسيلاس

وثقافة عالية وحرية واعية؟

هنا نصل إلى الأهم. هل يمكن أن يتفتح مواطن صالح في دولة مفككة ومجتمع منقسم؟ الملوك والحكام العظام كانوا ملهمين لشعوبهم والشبابِ منهم بشكل خاص. الأدباء والشعراء والفنانون الكبار والفلاسفة وصانعو السياسة الرفيعة الحضارية هم مُثُلٌ يُحتذى بهم في مجتمعاتهم، ومن سوء حظنا ان مجتمعنا صار يتلهف لرؤية أحدهم. هذا لا يعني ان لا أدباء أو شعراء أو فنانين عندنا لكن التحزّب الضيق والسياسة الصغيرة طغت على بعضهم ومن نجا منهم من هذه الآفة يتخبط ويجاهد لينتج الفن الراقي الأصيل ونحن لهم شاكرون لأنهم شعاعٌ دافئ في برد حياتنا اليومية.

قيل في القديم «إنما الأمم الأخلاق». كم صحيح هذا القول لأن أي شيء غير مبني على الإيمان والأخلاق باطلٌ وزائل وغير نافع.

إن كنا لم نعد نعوّل كثيراً على معظم أهل السياسة لأن التجربة المرّة التي عشناها طوال ثلاثة عقود ويزيد أثبتت فشلهم، لمَ لا نعوّل على بناءِ الإنسانِ الخلوق الذي يحترم نفسه أولاً لأن مَن يحترم نفسه يحترم الجميع، الإنسانِ الذي يعي انه على صورة الله ومثاله، الذي يعبّ من إيمانه الأخلاقَ والقيم، الذي يمارس المحبة بصدق وقناعة، الذي يعامل الغير بمثل ما يريد أن يُعامَل، الذي يدرك أن الله خلَقنا أحراراً لكن الحرية لا تعني الإنفلات. بمثل هذا الإنسان تُبنى الأوطان. بمثل هذا المواطن تزدهر المجتمعات فيعمّ العدل ويحكم القانون ويتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، فلا يعتبر إنسانٌ أنّ تطبيقَ القوانين عيبٌ أو دفعَ الضريبة غيرُ واجب، أو احترامَ الغير يحطّ من قدره. الإنسان الكبير لا يرفض الخضوع للقوانين والأنظمة لأنه يعرف ان في ذلك تستوي أمور المجتمع. الصغير المتكبّر يأنف من ذلك لنقص فيه. ولا ننسَ ان مَن وضع نفسه ارتفعَ ومن رفع نفسه اتضع.

رُبّ سائل: وكيف يكون لبنان بلداً سياحياً بلاً مقاهٍ وملاهٍ ومطاعم؟ صحيح، هذه الأماكن ضرورية ولكن هل تُبنى السياحة على الفساد وقلة الأخلاق؟ ألا يمكن إيجاد مطاعم وملاهٍ راقية يقصدها أرباب العائلات مع أولادهم ويجلسون جنباً إلى جنبٍ مع السياح والضيوف، بلا خجل أو حرج؟ وبلباس محتشم؟ هل يجب أن يبقى لبنان «كباريه الشرق» كما يسمّونه ليجلب السياح؟ أليس من الأفضل والأَلْيَق أن يكون مقصد السياح لما فيه من معارض فنية وثقافية ومسارح راقية ومكتبات مكتظة بالكتب المفيدة ومستشفيات تقدّم أفضل العلاج ومدارس وجامعات توفّر العِلم والمعرفة لمن يقصدها، وإذاعات ينشر أثيرُها الموسيقى الراقية عوض الزعيق المزعج، ومحطات تلفزيونية تروّج برامجُها لما يبني الإنسان لا لما يهدم ما تبقى من أخلاق؟

في هذا اليوم المبارك الذي نحتفل فيه بذكرى ختانة الرب يسوع بالجسد وخضوعه للشريعة، أسأل إلهنا الذي تجسد من أجل خلاصنا أن يبارككم جميعاً ويُحلّ في قلوبكم سلامه ويُشرق فيها نوره الذي لا يزول لتعيشوا في النور بلا خجل، ولا تنشدوا الظلمة التي قد تخفي بعض المعاصي إنما إلى حين. كما أسأله أن يبارك وطننا ويُنعم عليه بالسلام السماوي ويُلهم المسؤولين فيه ليعملوا على تنقية نفوسهم وختانة ألسنتهم فتصفو قلوبُهم وتحلّ فيها المحبةُ محلَّ الحقد والتسامحُ محلَّ الكراهيةِ والبغضِ ويعملون معاً، بقلبٍ واحد ويدٍ واحدة، من أجل نهضة وطننا لبنان واستقراره وازدهاره وإعادته منارةً للشرق وملتقى للحضارات والثقافات. آمين».